عبد الستار الهوارى

كتابك

فيلسوف الشرق العظيم

جمال الدين الافغانى

الناشر

لجنة الثقافة للنشر
بالقاهرة

مطبعة وادى الملوك
بأول شارع البرمونى رقم ٤ بمصر

عبد الستار الهوارى

كتابك

فيلسوف الشرق العظيم

جمال الدين الأفغانى

الناشر

لجنة الثقافة للنشر
بالقاهرة

مطبعة وادى الملوك
بأول شارع البرمونى رقم ٤ بمصر

تمهيد

لكل عظيم من العظماء ولكل فيلسوف من الفلاسفة العباقرة الأمجدين . ولكل كاتب (نزيه) دافع عن حقوق وطنه بقلمه أو سياسى ناضل فى سبيل كيان الدولة ومصالحها وحريتها واستقلالها ودستورها . لكل واحد من هؤلاء صحيفة ناصعة البياض خالدة مع الزمن تستطيع أن تقرأ بين سطورها سر عظمتهم وتفوقهم كل فى الناحية التى تخصص فيها . والعقيدة التى عاش لها والمبدأ الذى لم تدكه الأحداث أو التطورات السيئة .

ومن هؤلاء العظماء . السيد محمد جمال الدين الحسينى الأفغانى ذلك الفيلسوف الذى كان له الشأن العظيم فى عصره لما أتى به من معجزات فى العلوم السياسية والاجتماعية والأدبية والفلسفية .

كان فى الاجتماع كاتبا لايجاريه في كتاباته أى كاتب آخر يكتب . ويصف ويعالج المشاكل الاجتماعية والانسانية بقلمه وعقله وقلبه .

وفى السياسة كان سياسيا بارعا محنكا تقلب فى عدة مناصب هامة في دولته وفى بعض الدول الشرقية الأخرى . ولقد برهن على كفاءته ودقته وبعد نظره حتى أن السلطان محمد أعظم كان يستشيره في كل صغيرة وكبيرة كما سيأتي ذلك في الفصول التالية .

وفى ميدان الفلسفة والأدب كانت له صولات وجولات وحكم مأثورة لازالت خالدة بخلود ذكراه .

كان جمال الدين أسمر الاون ممتلىء البنية أسود العينين . جذاب النظر إلا أنه كان لايقرأ كتابا إلا وأدناه من عينيه ولكنه لم يستعمل النظارات قط . خفيف العارضين ذو شعر مسترسل كالرسل والأنبياء يرتدى جبة تنطبق على الكاحلين

وعمامة بيضاء صغيرة على زى علماء الآستانة . .

ولقد نشر علومه فى جميع أنحاء المعمورة من أقصاها إلى أدناها وفى كل دولة حل بها ثم غادرها ترك أثرا أدبيا نفيسا وترك تلامذة أصبحوا أئمة بعده فى الفلسفة والعلوم والتهذيب وكفى أنه كان أستاذا لامامنا المغفور له الشيخ محمد عبده مفتى الديار المصرية فما أحسن قول المرحوم شوقى بك (ليس للعلم وطن ولا للحكمة دار . بل العاقل من له على كل أرض مدرسة وعلى كل طريق أستاذ) .

وسنلخص فى فصولنا التالية حياة ذلك الفيلسوف الشرقى العظيم راجين أن نكون قد أنصفناه للحقيقة والتاريخ . والله سبحانه نسأل أن يوفقنا إلى مافيه إرضاء قرائنا الأعزاء ؟

عبد الستار الهوارى

مولد ونشأة فيلسوف

. . هو محمد جمال الدين الحسيني الأفغاني ابن السيد صفتر ولد رحمه الله عام ١٨٣٩ م ويتصل نسبه بالسيد على الترمذى المحدث المشهور ، بل يرتقي إلى الامام الحسين بن (على بن أبي طالب كرم الله وجهه) وكان مولده بقرية أسعد أباد من قرى كنر من أعمال كابل ببلاد الأفغان وكانت لعائلته منزلة كبيرة لدى الأفغانيين ومرتبة سامية ودرجة رفيعة وذلك لأن تلك الأسرة الأفغانية ، تتصل بالنبي ﷺ .

وكان رب هذه الأسرة — والد السيد محمد جمال الدين — يملك جزءاً من أراضى الأفغان ولكن دوست محمد خان جد الأمير عبد الرحمن استولى على هذه الأراضى قوة واقتدارا وأمر بأن ينقل والد جمال الدين وبعض أخوات أبيه إلى مدينة كابل . وكان جمال الدين فى هذا الوقت في الثامنة

من عمره . ولما ترك أبوه الأراضي التي كان يمتلكها وإتى إلى كابل عني بتربيته وتثقيف ذهنه بالعلوم وخطابه إلى دور النور تاركا وراء ظهره الجهل والظلام ، فتلقى مبادىء العلوم العربية من قراءة وكتابة ومطالعة . ثم بدأ يتعلم العلوم العالية كالتاريخ وعلوم الشريعة الاسلامية بمشتملاتها من حديث ، وتفسير ، وأصول ، وفقه ، وتصوف .. الخ : ثم تعلم العلوم العقلية من حكمة سياسية ومنزلية وأخلاقية وتهذيبية ونظرية طبيعية وإلهية والمنطق والعلوم الرياضية . والجبر والحساب والهندسة ونظريات الطب والتشريح وقد ألم بتلك العلوم وهو لازال في الثامنة عشر من عمره . وكان في هذه الأثناء مثال النجابة والفطنة والذكاء والنباهة . فنشأ نشأة ثقافية تهذيبية أفادته وأفادت من كتب لهم أن يكونوا تلامذة له .

ولقد طلب إليه بعض الأدباء أن يسافر إلى بلاد الهند

فلبي طلبهم وسافر من فوره إليها . وقد مكث بها عاما وبضع شهور وكان فى خلال تلك المدة يدرس بعض العلوم الرياضية على الطريقة الأوروبية الحديثة ثم سافر إلى البلاد الحجازية لكى يؤدى فريضة الحج . وليعرف عادات وأدب وسياسة أهل هذه الأقطار . ولقد انتقل من قرية إلى أخرى حتى وصل إلي مكة المكرمة . وكان ذلك في اوائل عام ١٨٥٧م

وفى أثناء سياحته هـذه تمكن من الوقوف علي أخلاق وعادات بعض الأمم . وبعد تأدية فريضة الحج عاد إلى بلاده فعين فى حكومتها فى عهد الأمير دوست محمد خان الذى سلب أملاك والده .

ولما أراد هـذا الأمير — دوست — أن يسير بجيشه لفتح مدينة (هراة) سار معه جمال الدين وصار ملازما له طول مدة الحصار والحرب حتى توفى الأمير فى هـذه المدة وفتحت المدينة واستولى عليها ولى العهد سير على خان

عام ١٨٦٤ وأشار عليه وزيره محمد رفيق خان بأن يلقى القبض على إخوته خوفا من أن ينشروا فى الناس دعوة معادات ولى العهد والمؤامرة ضده . فأصدر الأمير أمرا بالقبض عليهم وكانوا ثلاثة إخوة في الجيش الذى فتح مدينة (هراة) وهم الأمير محمد أعظم ومحمد أسلم ومحمد أمين ولقد انتصر جمال الدين للامير محمد أعظم . فلما علم هؤلاء الأمراء بذلك سارعوا إلى الفرار وتفرقوا فى الولايات وذهب كل منهم إلى الولاية التى كان خصصها له والده

ولقد اندلعت ألسنة الحروب الوطنية الداخلية واشتعلت نيران الثورة والفتن . وبعد وقائع عديدة انتصر الأمير محمد أعظم وابن أخيه عبد الرحمن وتغلبا على عاصمة المملكة وأنقذا والد عبد الرحمن — الأمير محمد أفضل — وكان مسجونا في سجن (قزنة) وجعلاه أميرا على الأفغانستان . غير أنه لم يلبث فى الحكم مدة

طويلة . إذ انتقل الى الدار الآخرة . وكانت مدة حكمه عام . فتولى الأمير محمد أعظم خان الامارة بعد شقيقه الراحل فعظم أمر الأمير ودانت له الرقاب ولقد عظمت منزلة السيد جمال الدين حيث جعله الأمير محمد أعظم في منزلة وزيره الأول . وكان يستشيره فى كل صغيرة وكبيرة حتى كانت الأعمال تنفذ بأمر ورأى جمال الدين . ولكن لم تلبث هذه الحال أن انقلبت فان أحد أبناء الأمير أغار بجيشه على عمه طمعاً فى الحصول علي الامارة والتحبب لدي والده أكثر من اخوته ولكنه غلب وانكسر ثم أخذ أسيراً فقام الأمير والده بمحاربة جيش أخيه محمد أعظم فحقت المزيمة على هذا الجيش وسارع الأمير بالفرار من هذه البلاد إلى ايران وهناك لم يمر على مكونه عدة أشهر حتى وافته المنية فى مدينة نيسابور .

ولقد ظل جمال الدين باقيا بمدينة كابل الأفغانية

ولم يستطع الأمير أن يمسه بأذى وذلك لخوفه من ثورة الرعية وجمهرتها احتراما لجمال الدين وبيته الذى يتصل بالنبي عليه الصلاة والسلام.. ولكن بالرغم من ذلك استطاع الأمير أن يغدر بجمال الدين وذلك سرا لا جهرا فلما أحس بذلك أسرع بمغادرة هذه البلاد بعد استئذانه الأمير فى السفر إلى الأراضي المقدسة لتأدية فريضة الحج . ولقد أذن له الامير بعد أن نبه عليه بعدم مروره على إيران وذلك لكى لا يلتقى بالامير محمد أعظم — وكان لا يزال حيا يرزق — وأمر أن يرحل عن طريق البلاد الهندية وكان ذلك فى عام ١٨٦٩ م وذلك بعد هزيمة الامير محمد أعظم بثلاثة أشهر فأجابه جمال الدين إلى طلبه

فى الهند

ولما وصل إلي التخوم الهندية قابلته حكومة بلاد الهند والشعب بالحفاوة والاجلال وأنزلوه المكانة اللائقة به بينهم

إلا أن الحكومة لم تسمح للعلماء بالاجتماع به ولا بطول إقامته فلم يمكث فيها إلا شهرا ثم غادرها إلى البلاد المصرية .

فى مصر

ترك جمال الدين الهند وأبحر إلى مصر فكانت أول ما وطئت قدماه البلاد المصرية هى مدينة السويس . ومنها إلى القاهرة . ومكث فيها أربعين يوما تردد فى خلالها على الجامع الازهر الشريف ومخالطة طلبته حيث تمكنوا من الاستفادة بعلمه مدة وجوده بينهم . ثم عزم على السفر إلي الآستانة . ولكنه تحول منه إلى الاقطار الحجازية .

فى الآستانة

ووصل إلى الآستانة مقر الدولة العلية . وبعد أيام قليلة من وصوله قابل الصدر الاعظم وكان يدعى عالى باشا فأنزله أكبر منزلة . وأظهر له من الحفاوة والاحترام ما يليق بقدره ومع ذلك كان جمال الدين يرتدى الثياب الافغانية —

شعار بلاده ومسقط رأسه ووطنه — وهذا الزى مكون من (الجبة) وتوابعها . والكساء والعمامة ولم يلبث بعد مجيئه أن علت مكانته وارتفعت منزلته . ولهج الجميع بذكره وذكر نبوغه وتفوقه فى العلوم والفنون حتى كان موضع حديث الامراء ومحور مسامرة الوزراء والكبراء والعظماء مع أنه غريب عنهم ويتكلم لغة غير لغتهم إلا أن النبوغ لاجنسية له ولو افتخر اليونانيون بسقراط وأفلاطون وارسطو فأولى لمصر بل وللشرق بصفة عامة أن يفخر بمحمد جمال الدين الافغاني .

وبعد ستة أشهر من وصوله إلى الآستانة عين عضوا فى مجلس المعارف فأدى لتركيا خدمات جليلة واقترح طريقة لتعميم العلوم فخالفه فى الموافقة على ذلك شيخ الاسلام .

وفى سنة ١٨٧١ طلب اليه مدير دار الفنون أن يلقي خطبة حيال انتشار الفنون . ولكنه اعتذر عن ذلك بأنه

لايجيد التركية فألح عليــه المدير فى ذلك فلم يمانع وأسرع بكتابة الخطبة التى سيلقيها ثم عرضها على نخبة من أعاظم الأتراك فاستحسنوها . وهكذا . ما كاد يأتى يوم هذه الخطبة حتى توافد جميع العظماء لسماع خطبته . حينما أزف الوقت اعتلى جمال الدين منصــة الخطابة وألقى خطبته ببلاغة سحرت القلوب وفتنت الفتية والشيوخ ونال الاستحسان وعلا مركزه بين جميع هؤلاء ..

ولكن بعض المشايخ أنكروا شيئا من آرائه واتصل الأمر بشيخ الاسلام الذى طلب من الحكومة أن تبعده فصدر الأمر بابعاده بضعة أشهر حتى تخمد نار الفتنة وتهدأ الخواطر وله أن يعود متى شاء فتركها بعد أن أشار عليه بعض الأصدقاء أن ينزح إلى مصر فوصل إليها فى ٢٢ مارس سنة ١٨٧١

فى مصر مرة أخرى

لم يكن رحمه الله يقصد من مجيئه إلى مصر الاشتغال بها

وإنما كان يرمى إلى التفرج على مافيها من مناظر أثرية تاريخية وكانت نيته متجهة الى الاقامة بها مدة قليلة . ولكنه لما قابل المرحوم رياض باشا رئيس النظارة المصرية استماله هذا إليه . وفرضت له الحكومة المصرية راتبا شهريا يتقاضاه بدون نظير وقدره عشرة جنيهات مصرية ومنزلا خاصا لا فى مقابلة عمل أو خدمة يؤديها ، وقد تمكن بعض الطلبة المصريين من التعرف به فوجدوا فيه أدبا جما وأخلاقا عالية وكان يرحب بزائريه على اختلاف طبقاتهم ولا يتكلم إلا اللغة العربية الفصحى ولكنه إذا رأى من جليسه عدم مقدرته على معرفة قوله خاطبه بلغة عربية بسيطة العبارة وإذا كان من الذين لايفهمون إلا العامية تنازل وخاطبه بها .

وكان لايخاطب زائريه إلا فيما يعود عليهم بالنفع . وإذا ماأراد زائره الانصراف خرج معه ليوصله بمثل ماقابله به من الحفاوة . وإذا خاطب الناس خاطب كل منهم فى الموضوع

الذى يهمه . فلا يدع فرصة تمر دون أن يلقى على السامع عظة وعبرة . وكان لا يأكل كثيراً إلا أنه كان يستعيض عن الأكل بتناول الشاى ، وكان يدخن نوعا جيداً من لفافات التبغ الافرنجية الفاخرة .

كان جمال الدين حر الضمير عفيف اليد طاهر النقية صادق اللهجة يعمر قلبه بالايمان دائما . وكان وديعا مع أنفة وعظمة ثابت الجأش قوى العزيمة وقد يؤتى به إلى حيث يقتل فلا يهمه الأمر فى قليل أو كثير . وكان شجاعا قويا لا تغره الدنيا بزخرفها وزينتها ومتاعها ولا يخاف عاقبة الحاجة حتى أنه لم يدخر مالا لأنه كان لا يخشى العوز أو الفاقة حتى قيل أنه لما أبعد عن مصر وكان لا يملك شيئا . خاوى الوفاض بادى الأنقاض اتصل به قنصل ايران مع نفر من كبار تجار العجم ليقدموا له بعضا من النقود وذلك ليستعين بها عند الحاجة فأعادها اليهم شاكرا وقائلا لهم (احفظوا المال

فأنتم إليه أحوج . إن الليث لا يعدم فريسة حيثما ذهب)

كان عادل الطبع لين العريكة يصبر علي المصائب بقدر طاقته ويلاقي الصعب بصدره الرحب لايخاف بأس إنسان ولا يمد يده إلى مخلوق وإذا خاطب إنسانا حثه على الجد والعمل حتى إذا رأى ممن يخاطبه أذنا صاغية تركه وهو عالم أنه سيجتهد وسينجح فى الحياة . كان ذكيا نجيبا فطنا عاقلا مؤدبا مهذبا حسن الخلق قوي الملاحظة سريع الادراك حتي أنه كان يعرف ماتخفيه الصدور وماتحجبه الضمائر وماتكنه القلوب وقد تعلم اللغة الفرنسية فى ثلاثة شهور بغير معلم إلا من علم المبادىء والحروف حتى أنه كان يترجم منها إلى العربية ترجمة صحيحة خالية من الغلطات والشوائب .

وكان لايفوته كتاب فى آداب الأمم وفلسفتها وأحوالها وسياستها وحكمها إلا واطلع عليه وكانت أكثر قراءته للكتب العربية والفارسية . وكان يجيد من اللغات العربية والأفغانية

والتركية والفارسية والروسيه والفرنسية والانجليزية وكل ماكانت تصبو اليه نفسه هو أن يوحد كلمة الاسلام ويجمع شتات المسلمين ويجعلهم كلهم مملكة واحدة يأتمرون وينتهون بأمر واحد . وقد بذل فى هذا السبيل كل مرتخص وثمين فلم يوفق فى ذلك حتى وافته المنية قبل أن يتمم أعماله

ولقد تعرفت به الطلبة المصريين وذاع صيته وظهر هلال شهرته وبدأ يضىء على العالم بعلمه . وقد وجه عنايته فى بادىء الأمر الى محو الاوهام من عقول بنى الانسان وحمل تلامذته على الكتابة والانشاء فى الفصول الحكمية والأدبية والعلمية والدينية فأجابوا سمعا وطاعة وكان فن الكتابة فى مصر من الفنون المندثرة فأحياه بحسن تدبيره وسعيه وقوة ذاكرته وكانت مدرسته هي داره فكان يعلم فيها تلامذته .

وكان رحمه الله ميالا إلى السياسه فخاض غمارها . وكان يعلم أن مصر فى حاجة الى أناس يعملون الى محو التدخل

الاجنبي وأنه لابد من تغيير أحوالها فانتظم فى سلك الجمعية الماسونية وظل بها حتى صار رئيسا لها فأنشأ محفلا وطنيا تابعا للشرق الفرنسوى دعى اليه مريديه ومحبيه من العلماء والكبراء والوجهاء حتى صار عدد اعضائه مايقرب من ثلاثمائة عضو وقد نقد فى حياته السياسية بعض أساليب السياسة الانجليزية فى فصول كان قد نشرها ونشرت فى الصحف الانجليزية . وقد تولى الرد عليه اللورد غلادستون فلما عظم أمر محفله . داخل الانجليز الخوف فبادر قنصل انجلترا الى بث دعوة الدسائس فى هذا المحفل ووشى به الى الحكومة واشتد الجدال بينه وبين غلادستون والانجليز حتى بلغت مصر نهايه الارتباك وقد صرح — جمال الدين — بأشياء قوت الساعين ضد الانجليز حتى تولى مصر المرحوم توفيق باشا فأصدر أمره بابعاده عن هذا القطر السعيد هو وتابعه (ابو تراب) فخرج منها موليا وجهه شطر البلاد

الهندية وذلك بعد ان ودع وداعا حاراً من تلامذته ومن استفادوا بعلومه وأبحاثه وثقافته وكادت تحدث ثورة داخلية لرحلة هذا الرجل لولا ان الله سلم .

فى الهند مرة أخرى وفى فرنسا . .

كان ذلك فى يوم من أيام عام ١٨٨٩م حيث وصل إلى الهند وأقام فى بلدة تسمى حيدر آباد الدكن وهناك كتب رسالة عن — نفى مذهب الدهريين — ولما بدأت الحوادث العرابية المشهورة فى مصر طلب اليه الحضور من حيدر آباد الدكن والزمته الحكومة الهندية بالاقامة فى (كلكوتا) وظل بها حتى انتهت الحركة العرابية فأبيح له الذهاب الى أي بلدة يختارها فرغب الاقامة فى اوروبا وكانت أول البلدان التى نزل بها هى (لندرة) عاصمة المملكة البريطانية . وقد أقام بها عدة ايام ثم لم يلبث أن سافر الى باريس حيث وافاه فيها تلميذه

وصديقه المرحوم الامام الشيخ محمد عبده وكان فى مصر وقتئذ جمعية تسمى (العروة الوثقى) فطلبت اليه أن ينشيء جريدة تدعو كلمة المسلمين وتنفيذ برنامجه فأصدر جريدة (العروة الوثقى) واسند رئاسة تحريرها الى المغفور له الاستاذ الشيخ محمد عبده فذاعت وراجت وانتشرت انتشاراً عظيما ولكن حالت الموانع دون نشرها وكان قد صدر منها ثمانية عشر عددا حيث أقفلت أبواب الهند فى وجهها وشددت الحكومة الانجليزية فى مراقبتها ومعاقبة من يقرأها . .

قضى المرحوم — السيد جمال الدين — فى باريس ثلاثة أعوام نشر فى اثنائها مقالات فى الصحف الفرنسية يبحث فى سياسة الدولة العلية ومصر وروسيا وانجلترا وقد ترجمت جرائد انجلترا كثيرا من هذه المقالات وجرت له ابحاث فلسفية مع أحد الفلاسفة الفرنسيين حيال موضوع العلم والاسلام شهد له فيها هذا الفيلسوف بسعة الاطلاع والعلم

وقوة الحجة وصواب الرأى ثم سافر الى انجلترا . وعاد الى فرنسا مرة أخرى . وتعرف بكثير من فلاسفتها وعظمائها وكبرائها فأحلوه مكانا عاليا بينهم وبين شعبهم .

فى البلاد الايرانية .

مما تقدم . يدرك القارىء الكريم رسالة صاحب الترجمة وهدفه وكفاحه ونضاله فى الحياة . فالرجل مسلم يسعى الى توحيد كلمة الاسلام وجمع شتات المسلمين وكان يحب الحرية وينبذ العبودية . ولقد اتصل بكثير من حكام وملوك وولاة البلاد العربية والأوروبية . وتباحث معهم فى شأن الاسلام والمسلمين . ولقد شهدوا له بالبراعة والعلم والبحث وسعة الاطلاع . فظل رحمه الله يكافح حتى انتقل الى الدار الآخرة

عزم المرحوم على السفر الى بلاد ايران فاستقدمه شاه الفرس (ناصر الدين شاه) اذ ذاك . وكان قد أبرق اليه

الحضور لكى يتعرف به فأجابه ـ رحمه الله ـ الى طلبه وفى اثناء سفره تقابل بالأمير ظل السلطان فقابله هذا بالحفاوة اللائقة والاجلال العظيم حتى وصل جمال الدين الى طهران فقابله فيها الشاه مقابلة حسنة وأعجب به أيما اعجاب واكثر من الثناء عليه والمدح فيه حتى فى بلاطه وبين اهله وعشرته وأسند اليه وزارة الحربية تمهيدا لاسناد الصدارة (رئاسة الحكومة) إليه بعد قليل وقد نال جمال الدين المنزلة الكبرى لدى علماء الفرس وأمرائها وأهلها حتى صار منزله كعبة القاصدين ومكانا لاجتماع الجميع يؤمنون اليه ليستمعوا مايلقيه على مسامعهم من الحديث فخاف الشاه وضامره الشك والريب من جمال الدين ظنا منه أنه ربما يمتد نفوذه وسلطانه فأظهر له نفورا شديدا ولما علم جمال الدين بالأمر ورأى منه ذلك طلب من الشاه السماح له بمغادرة هذه الديار ترويحا لنفسه من عناء الاعمال فأذن له بالسفر، فسافر الى

(موسكو) عاصمة روسيا . وهناك قوبل بالحفاوة والاحترام

تنقلات جمال الدين

ما كاد جمال الدين يحط رحاله بالروسيا حتى اكبر الروسيون قدره وذلك لما سمعوا عنه من علو شأنه وما سبق الى مسامعهم من شهرته ثم سافر الى (بطرسبورج) وهناك تعرف بعلمائها وساستها ونشر فى جرائدها مقالات ضافية عن سياسة الأفغان وروسيا والفرس والدولة العلية والانكليزية وكان لهذه المقالات دوى هائل فى عالم السياسة واتفق إذ ذاك فتح معرض باريس عام ١٨٨٩ . فسافر اليها جمال الدين وهناك التقى بشاه الفرس فى ميونيخ عاصمة بافاريا عائدا من باريس فطلب اليه الشاه أن يرافقه فأجابه جمال الدين الى دعوته وسافر معه فى معيته الى ايران . وهناك أنزله المكانة

اللائقة به كأنه ليس هو ذلك الرجل الذى أبغض جمال الدين وخاف سوء العاقبة من التفاف الناس حوله . وكأن وربا قد محت من ذهنه كل هذه الأفكار الخزعبلية السخيفة فكان يستشيره فى كل شىء حتى عز هذا على رجال الدولة فأسر الصدر الأعظم الى الشاه أن هذه القوانين التى يصدرها بمعونة جمال الدين نافعة للوطن إلا أنها ربما تحوله دون نفوذ أوامر الشاه والالتفاف حوله فعول على أن يعيد كرة البغض لجمال الدين . فلما رأى منه ذلك طلب أن يسمح له بالسفر الى بلدة شاه عبد العظيم التى تبعد (٢٠ كيلو مترا من طهران) فأذن له بذلك وتبعه جم غفير من العلماء والوجهاء والعظماء فصار يخطب فيهم ويحثهم على إصلاح وطنهم وحكومتهم ولم تمض ستة أشهر على ذلك حتى ذاعت شهرته في جميع أنحاء بلاد الفرس وشاع عزمه على اصلاح ايران فخاف ناصر الدين عاقبة ذلك وأرسل الى بلدة شاه عبد العظيم

خمسمائة فارس قبضوا على جمال الدين وكان مريضا فحملوه ن فراشه وساقوه يخفره خمسون فارسا حتى حدود المملكة العثمانية فعز ذلك على مريديه في إيران فثاروا على الشاه حتى خاف هذا على حياته من ثورتهم .

أما جمال الدين فقد ظل بالبصرة في دور النقاهة من مرضه . وسافر الى لندره وكان الانجليز قد عرفوا قدره ومكانته فأجلوه وبالغوا فى احترامه والترحاب به وصاروا يدعونه الى مجتمعاتهم السياسية وأنديتهم العلمية ليسمعوا حديثه . أما هو فكان يحدثهم عن الشاه وتصرفه في المملكة وما آلت اليه حالتها فى عهده وكان يحث الانجليز على خلعه وفيما هو كذلك ورد اليه كتاب من المابين الهمايونى بواسطة المرحوم رستم باشا سفير الدولة العلية فى لندن فاعتذر جمال الدين عن تلبية الدعوة وانه فى شاغل وقتى فى إصلاح بلاده ولكن ورد اليه كتاب آخر فيه ثناء ومدح له وحض على

السفر فأجاب الدعوة برقيا على ان يتشرف بمقابلة جلالة السلطان المعظم

وفاته

سافر جمال الدين الى الاستانة عام ١٨٩٢ فطابت له الاقامة لما لاقاه من حسن معاملة المغفور له السلطان عبد الحميد خان وحفاوتهم به . وظل فيها معززا محترما مبجلا حتى داهمه السرطان فى فكه الى عنقه فظل يعانى الآلام عدة أشهر وكان يفكر في وطنه وفى اصلاحها وهو فى النزع الأخير حتى توفى فى ٩ مارس سنة ١٨٩٧ أى عاش ٥٦ عاما .

فاحتفل بجنازته احتفالا مهيبا ودفن فى مدفن (شيخلر مزارلغى) قرب نشان طان .

تلك هى حياة ذلك الفيلسوف الشرقى العظيم الفرد الذى

٢٨

كانت تخش هيبته الأمم العظيمة ولم يعرفوا قدره حتى وافته المنيه فحزن العالم عليه حزنا بالغا ولكن ماجدوى الحزن وما فائدة الآهات والدموع بعد أن يخر البطل صريعا في ميدان الكفاح . . ؟

مختارات من نثره

(١) العروة الوثقى لا انفصام لها

. . قال الله تعالى (آلم ، أحسب الناس أن يتركوا أن يقولوا آمنا وهم لا يفتنون . ولقد فتنا الذين من قبلهم فليعلمن الله الذين صدقوا وليعلمن الكاذبين)

من الناس بل أغلب الناس من يقولوا آمنا (وللايمان آثار) ثم يحسبون أن الله يتركهم ويدعهم وما يتوهمون ويماليهم سبحانه وهو الحكم العدل بما يظنون فى أنفسهم قبل أن يبتليهم أيهم أحسن عملا حتى تظهر أنفسهم لأنفسهم ويعلموا هل هم حقيقة مؤمنون أو هذه دعوى سولتها النفس وغرت بها الأماني وأنهم تائهون فى أوهامهم يحسبون أنهم على شيء وهم خلو من كل شيء (ولما يدخل الايمان في قلوبهم)

الا انهم فى حسبانهم لمخطئون فلن يدع الله المغرور فى غيه حتى يبتليه فى دعوى الايمان (ليعلم الله الذين جاهدوا ويعلم الصابرين) و (لئلا تكون للناس على الله حجة) ... حاشا حكيما أنزل الكتب وأرسل الرسل ووعد وأوعد وبشر وأنذر وقوله الصدق ووعده الحق أن يجازى من بنى عقيدته على خيال له أثر ، وظن ليس له اساس بالسعادة الرمدية والنعيم الابدى . إن المغتر بزعمه ، الحائر فى ظلمات اوهامه ، الذى لا يسهل عليه الايمان احتمال المشاق وتجشم المصاعب فى سبيله ليس بمعزل عن المنافقين الذين حكم الله عليهم بالشقاء الابدى والعذاب المخلد . الايمان يغلب كل هوى ويقهر كل أمنية ويدفع بالنفس الى طلب مرضاة الله بلا سائق ولا فائدة سواه. يقول الله تعالى وهو اصدق القائلين (لا يستأذنك الذين يؤمنون بالله واليوم الآخر أن يجاهدوا بأموالهم وأنفسهم فى سبيل الله والله عليم بالمتقين إنما يستأذنك الذين لا يؤمنون

بالله واليوم الآخر وارتابت قلوبهم فهم فى ريبهم يترددون ﴾ هذا قضاء الله وهذا حكمه على الذين يستأذنون فى بذل أرواحهم وأموالهم فى أداء فريضة الايمان حكم عليهم بأنهم لا يؤمنون . صدق الله وصدقت كتبه ورسله . ان للعقائد الراسخة آثار تظهر فى العزائم والأعمال وتأثيرا فى الأفكار والارادات لا يمكن للمعتقدين أن يزيحوها عن أنفسهم ماداموا معتقدين . هذا حكم الايمان فى جميع شئونه وأطواره له خواص لا تفارقه ونزعات لا تزايله وصفات جليلة لا تنفك عنه وخلائق عالية سامية لا تباينه بها . كان يمتاز المؤمنون فى الصدر الاول وكان يعترف بعزيمتهم وعلو منزلتهم من كان يجحد عقيدتهم . نعم الذين صبروا فى نيران امتحان الله وابتلائه حتى ظهر ايمانهم ذهبا ابريزاً صافيا من كل غش وأعد الله لهم جزاءاً على صبرهم نعيما مقيما .

ما أصعب ابتلاء الله وما أشد فتنته وما أدق حكمته

في ذلك (ليميز الله الخبيث من الطيب) . نعم ان دون ابتلاء الله خلـع العادات وتحمل الصعوبات وبذل الاموال وبيع الارواح . كل خطر فهو تهلكة ينبغى البعـد عنها الا فى الايمان فكل تهلكة فيه فهى نجاة وكل موت في المحامات عن الايمان فهو بقاء أبدى وكل شقاء فى أداء حقوق الايمان فهو سعادة سرمدية . المؤمن يبذل ماله فيم يقتضيه الايمان ولا يخشى الفقر . (وان كان الشيطان يعده الفقر . ليس فى النفقة لأداء حق الايمان تبذير ولو أتت على كل ما فى أيدى المؤمنين . إن للمؤمن حياة وراء هذه الحياة وأن له لذة وراء لذاتها وأن له سعادة غـير ما يزينه الشيطان من سعاداتها . هكذا يرى المؤمن ان كان الايمان مس قلبه ولو لم يبلغ الغاية من كماله . إن الفرار من محنة الله فى الايمان مجلبة للخزى الأبدى إن الفرار من مصادمة جيش الضـلال وان بلغت اقصى ما يتصور مـوجب للشقاء السرمـدى . لاسعادة الا بالدين

ودون حفظ الدين تطاير الاعناق . إن للايمـان تكاليف شاقة وفرائد صعبة الأداء (إلا على الذين امتحن الله قلوبهم للتقوى) . ان القيام بفرائض الايمان محفوف بالمخاطر مكتنف بالمكاره كيف لا وأول مايوجب الايمان خروج الانسان من نفسه وماله وشهواته ووضع جميع ذلك تحت أوامر ربه لن يكون المؤمن مؤمنا حتى يكون الله ورسوله أحب اليـه من نفسه . أول إحساس بنفس المؤمن إنه فى هذه الدنيا عابر سبيل إلى دار أخرى خير من هذه الحياة وأبقى وأول خطوة يخطوها المؤمن بذل روحه إذا دعاه داعى الايمان ولا داعى أرفع صوتا ولا أبين حجة من نداء الحق على لسان أنبيائه لايقبل الله فى صيانة الايمان عذرا ولا علة مادامت الرجل تمشى والعين تنظر واليد تعمل .

ان امتحان الله المؤمنين سنة من سننه يميز بها الصادقين من المنافقين . فى كل قرن يدعو الله المؤمنين ألى قوم أولى

بأس شديد (فان يطيعوا يؤتهم الله أجرا حسنا وإن يتولوا يعذبهم عذابا اليما) . فميزان عـدل الله منصوب الى يوم القيامة وهنالك الجزاء الأوفى فلا يحسبن الواسمون انفسهم بسمة الايمان القانعون منه برسم يلوح فى مخيلاتهم. إن عدل الله يتركهم وما يظنون (كلا إنهم فى كل عام يفتنون) لينظر المفرطون فى دينهم ضنا بأموالهم وصونا لأرواحهم ماذا يكون موقفهم من علم الله هل من الذين صدقوا أم من الكاذبين . أرشد الله المؤمنين إلى وسائل خيرهم وشرهم بعاقبة أمرهم .

(ب) « قل ان الموت الذى تفرون منه فانه ملاقيكم »

شهد العيان ودلت الآثار على ماصدر من بعض افراد الانسان من أعمال تحير الالباب وتدهش الافكار ينظر اليها ضعفاء العقول فيعدونها معجزات وان لم تكن فى ازمنة

النبوات ويحسبونها خوارق عادات وان لم تكن من تحدى الرسالات وقد ينسبها الغفل الى حركات الافلاك وأرواح الكواكب وموافقة الطوالع ومن القاصرين من يظنها من أحكام الصدف وقذفات الاتفاق عجزا عن إدراك الاسباب وفهم الصواب . اما من أتاه الله الحكمة ومنحه الهداية فيعلم ان الحكيم الخبير جل شأنه وعظمت قدرته قد أناط كل حادث بسبب وكل مكسوب بعمل وانه قد اختص الانسان من بين الكائنات بموهبة عقلية ومقدرة روحانية يكون بهما مظهراً لعجائب الامور وبهذه المقدرة وتلك الموهبة مناط التكاليف الشرعية وبهما استحقاق المدح أو الذم عند العقلاء والثواب أو العقاب عند واسع الكرم سريع الحساب .

اذا رجع البصير الى القياس الصحيح رأى فى تشابه القوى الانسانية وتماثل الفطرة البشرية ما يدل على تقارب العقول بل على استواء المدارك وارشده الفكر السليم الى

ان فضل الله قد أعد كل انسان للكمال ومنحه ما يكون به مصدرا لفضائل الأعمال على تفاوت لا يظهر به الاختلاف بينهما إلا للنظر الدقيق هذه وقفة الخيرة . استعداد فطرى للكمال فى خلقة الانسان . ميل كلى فى فرد لأن يتفرد بالفخار ويمتاز بجلائل الآثار وفضل عام من الجواد المطلق سبحانه وتعالى لايخيب طالبا ولا يرد سائلا اذ صدق القاصد في قصده وأخلص السائل فى جده فما العلة فى إخلاد الجمهور الاعظم من بنى الانسان الى دنيات المنازل وقصورهم عن الوصول الى ما أعدته لهم العناية ويستفزهم اليه الميل الغريزى خصوصا ان كانت النفوس مؤمنة بعدل الله مصدقة بوعده ووعيده ترجو ثوابا على الباقيات الصالحات وتخشى عقابا على ارتكاب الخطيئات وتعترف بيوم العرض الأكبر (يوم تجزى كل نفس بما كسبت) (من يعمل مثقال ذرة خيرا يره ومن يعمل مثقال ذرة شرا يره) ماذا يقعد بالنفوس عن

العمل . ماذا ينحدر بها فى مزالق الزلل . اذا ردت المسببات الى أسبابها وطلبت الحقائق من حدودها ورسومها وجدنا لهذا علة أم العلل ومنشأ يقرن به كل خلل

(الجبن) . الجبن هو أوهى دعائم الممالك فهدم بناها . هو الذى قطع روابط الامم فحل نظامها هو الذى أوهن عزائم الملوك فانقلبت عروشهم وأضعفت قلوبهم العالين فسقطت صروحهم . هو الذى يغلق أبواب الخير فى وجوه الطالبين ويطمس معالم الهداية عن أنظار السائرين . يسهل على النفوس احتمال الذلة ويخفف عليها مضض المسكنة ويهون عليها حمل نير العبودية الثقيل . يوطن النفس على تلقى الاهانة بالصبر والتذليل بالجلد ويوطأ الظهور الخاسية لاحمال من المصائب أثقل مما كان يتوهم عروضه عند التحلى بالشجاعة والاقدام . الجبن يلبس النفس عارا دون القرب منه موت أحمر عند كل روح زكية وهمة علية يرى الجبان

وعر المذلات سهلا وشظف العيش فى المسكنات رفها ونعيما

من يهن يسهل الهوان عليه ما لجرح (بميت) إيلام

لا . بل يتجرع مرارة الموت فى كل لحظة ولكنه راض بكل حال وان لم يبق له إلا عين تبصر الأعداء ولا ترى الاحباء ونفس لا يصعد إلا بالصعداء واحساس لا يلم به إلا ألم اللأوا هذه حياته أضاع كل شيء في القناعة بلا شيء وهو يظن انه أدرك البغية وحصل المنية . (ما هو الجبن) .

انخذال فى النفس عن مصادمة كل عارض لا يلائم حالها وهو مرض من الأمراض الروحية يذهب بالقوة الحافظة للوجود التي جعلها الله ركنا من أركان الحياة الطبيعية وله أسباب كثيرة لو لوحظ جوهر كل منها لرأينا انه يرجع الى الخوف من الموت . الموت مآل كل حى ومصير كل ذى روح . ليس للموت وقت يعرف ولا ساعة تعلم ولكنه

فيما بين النشأة وأرذل العمر ينتظر فى كل آن ويرتقب فى كل لحظة ولا يعلمه الا مقدر الآجال جل شأنه (وما تدرى نفس ماذا تكسب غدا . وما تدرى نفس بأى أرض تموت) . يشتد الخوف من الموت إلى حد يورث النفس هذا المرض القاتل بسبب الغفلة عن المصير المحتوم والذهول عن ما أعده الله للانسان من خير الدنيا وسعادة الآخرة اذا صرف قواه الموهوبة فيما خلقت لأجله . نعم يغفل الانسان فيظن ما جعله الله واقيا للحياة وهو الشجاعة والاقدام سببا فى الفناء بحسب الجاهل أن في كل خطوة خطرا مع ان نظرة واحدة لما بين يديه من الآثار الانسانية وماقاله طلاب المعالى من الفوز بآمالهم وماذللوا من المصاعب في سيرهم تكشف له ان تلك المخاوف إنما هى أوهام واصوات غيلان ووساوس شياطين غشيته فأدهشته وعن سبيل الله صدته ومن كل خير حرمته

الجبن فخ تنصبه صروف الدهر وغوائل الأيام لتغتال

به نفوس الانسان وتلتهم به الأمم والشعوب هو حبالة الشيطان يصيد بها عباد الله ويصدهم عن سبيله . هو علة لكل رذيلة ومنشأ لكل خصلة ذميمة . لا شقاء الا وهو مبدأه . ولا فساد الا وهو جرثومته ولا كفر الا وهو باعثه وموجبه ممزق الجماعات ومقطع روابط الصلات . هازم الجيوش ومنكس الأعلام . ومهبط السلاطين من سماء الجلالة الى أرض المهانة . ماذا يحمل الخائنين على الخيانة فى الحروب الوطنية — أليس هو الجبن — ماذا يبسط أيدى الأدنياء لدنيئة الارتشاء — أليس هو الجبن — ربما يتوهم بعد المثال فتأمل أن الخوف من الفقر يرجع فى الحقيقة الى الخوف من الموت وهو علة الجبن . سهل عليك ان تعتبر هذا في الكذب والنفاق وسائر انواع الأمراض المفسدة لمعيشة الانسان .

الجبن عار وشنار على كل ذي فطرة انسانية خصوصا الذين يؤمنون بالله ورسله واليوم الآخر ويؤملون ان ينالوا جزاءا

لأعمالهم أجرا حسنا . ينبغى ان يكون ابناء الملة الاسلامية بمقتضى احوال دينهم ابعد الناس عن هذه الصفة الرديئة (الجبن) فانها أشد الموانع عن أداء مايرضى الله وأنهم لايبتغون الارضاه . يعلم قراء القرآن أن الله قد جعل حب الموت علامة الايمان وامتحن الله به قلوب المعاندين ويقول فى ذم من ليسو بمؤمنين (ألم تر إلى الذين قيل لهم كفوا أيديكم وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة فلما كتب عليهم القتال إذا فريق منهم يخشون الناس كخشية الله أو أشد خشيه وقالوا ربنا لم كتبت علينا القتال لولا أخرتنا الى أجل قريب .. الآية) الاقدام فى سبيل الحق وبذل الاموال والارواح فى اعلاء كلمته أول سمة يتسم بها المؤمنون . لم يكتفى الكتاب الالهى بأن تقام الصلاة وتؤتى الزكاة وتكف الايدي بل جعل ذلك مما يشترك فيه المؤمنون والكافرون المنافقون . بل جعل الدليل الفرد هو بذل الروح فى اعلاء كلمة الحق والعدل الآلهى بل عدمه

الركن الوحيد الذي لا يعتد بغيره عند فقده ولا يظن ظان أنه يمكن الجمع بين الدين الاسلامى وبين الجبن فى قلب واحد كيف يمكن هذا وكل جزء من هـذا الدين يمثل الشجاعة ويصور الاقدام وأن عماده الاخلاص لله والتخلى عن جميع ماسواه لاستحصال رضاه — المؤمن من يوقن ان الآجال بيد الله يصرفها كيف يشاء ولا يفيده التوطأ عن اداء المفروض زيادة فى الأجل ولا ينقصه الاقدام دقيقة منه المؤمن من لا ينتظر بنفسه الا إحدى الحسنيين إما أن يعيش سيدا عزيزاً وإما أن يموت مقربا شهيدا وتصعد روحه إلى أعلى عليين ويلتحق بالكروبيين والملائكة المقربين . من يتوهم أنه يجمع بين الجبن وبين الايمان بما جاء به سيدنا محمد ﷺ فقد غش نفسه وتحرر بعقله ولعب به هوسه وهو ليس من الايمان في شيء . كل آية من القرآن تشهد على الجبان بكذبه في دعوى الايمان . لهذا نأمل من ورثة الانبياء أن

يصدعوا بالحق ويذكروا بآيات الله وما أودع الله فيها من الأمر بالاقدام لاعلاء كلمته والنهى عن التباطى. والتعاقد فى أداء ما أوجب الله من ذلك وفى الظن أن العلماء لو قامو بهذه الفريضة (الأمر بذلك المعروف والنهى عن هذا المنكر) زمنا قليلا ووعظوا الكافة بتبيين معانى القرآن الشريف وإحيائها في أنفس المؤمنين رأينا لذلك أثرا فى هذه الملة يبقى ذكره أبد الدهر وشهدنا لها يوما تسترجع فيه مجدها فى هذه الدنيا وهو مجد الله الأكبر. فالمؤمنون بما ورثوا من أسلافهم وبما تمكن فى أفئدتهم من آثار العقائد لا يحتاجون إلا لقليل من التنبيه ويسير من التذكير فينهضون نهضة الأسود فيستردوا مفقودا ويحفظوا موجودا وينالوا عند الله مقاما محمودا ؟

خاتمة

ان حياه جمال الدين ، وكفاحه ، وجهاده فى سبيل الله ، ومبادءه التى كان يرمى بها الى الى توحيد كلمة الاسلام ، ذلك فضلا عن نفيه وتشريده تملا مجلدات ضخمة ، ولكننا قدمنا فى كتابنا هذا مقتطفات عن معظم أعماله ، ووجهنا اهتمامنا الى اللباب دون القشور ، ولقد حررناه بطريقة ترضى القراء ، كما قدمنا مقالات من أهم ما كتب وبحث حتى يفهم القارىء كيف كانت ميول هذا الفيلسوف العظيم ويعرف أنه كان عالما جليلا انتفعت البلاد العربية بجهوده وبما كان يبثه فى روح شبابها من حثهم على العلم ثم

يلاحها الشرق الصميم .

كما تعهدت اللجنة أن تصدر مؤلفاتها عن الفلاسفة ، والفنون ، والخلفاء ، وانتشار الاسلام ، والشعراء ، وستعالج في كتبها القادمه كل مايلمسه القارىء الكريم من نقص في كتابنا هذا من طبع أو خلافه ، ولعلنا لا نغالى ان قلنا أن النسخة الواحدة من كتابنا هذا كلفتنا أربعة قروش ولكننا آخذنا على أنفسنا ميثاقا أن نضحى بكل عزيز في سبيل الأدب العربي إرضاء لقرائنا ومشتركينا وللوكلاء عنا في جميع الاقطار العربية ، نسأل القارىء الصفح عما يراه خطأ ، ونسأل الله التوفيق فى هـذا المجهود الذي يعلم عز إسمه اننا لا نبتغى منه سوى حماية الأدب العربى ؟

لجنة الثقافة للنشر

يصدر كتابنا القادم في أوائل يوليو

وكلاؤنا ...

(١) الشيخ محمود محمد الحنان	بلقاس — مصر
(٢) السيد أحمد حمدى رجب	حلب ـ جادة العربان
(٣) السيد أحمد وهبي السمان	حلب ـ سوق الطرايبشية
(٤) السيد حسين الهاشمى	وكيل عام بغداد والعراق شعبة الذاتية والأمور السرية
(٥) السيد عيسى آدم	مكتبة النيل الثقافية . سودان

وتطلب مطبوعاتنا من جميع المكاتب بسوريا ولبنان والسودان وشرق الأردن وفلسطين وعمان والخليج الفارسى

جميع الرسائل تكون باسم الأستاذ عبد الستار الهوارى
بعنوان رقم ٩ شارع نصره — القاهرة
خابرونا بشأن الوكالة وفى كل مايهمكم ...